جمهورية مصر العربية
جامعة الزقازيق
المعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم

مجلة
حضارات الشرق الأدنى القديم

دورية علمية محكمة

http://www.east.zu.edu.eg

الزقازيق

العدد الثانى – السنة الثانية– أكتوبر ٢٠١٦ م–الجزء الأول

رقم الإيداع ١٨٤٣٥ - الترقيم الدولى (٥٣٣٥ - ٢٠٩٠)

مطابع جامعة الزقازيق

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الدولي

حضارات الشرق الأدنى القديم ومؤثراتها عبر العصور

الذى أقيم خلال الفترة من ١٣–١٥ مارس ٢٠١٦

بالمعهد العالى لحضارات الشرق الأدنى القديم–جامعة الزقازيق

بالتعاون مع كلية التربية الأساسية جامعة بابل

فاعلية المكان في مصر القديمة
-الشاعر البرعي انموذجا-

أ.م.د زينب فاضل احمد
كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية

أ.م.د اسراء خليل فياض
كلية التربية، الجامعة المستنصرية–العراق

فاعلية المكان في مصر القديمة
-الشاعر البرعي انموذجا-

أ.م.د زينب فاضل احمد
كلية التربية الاساسية، الجامعة المستنصرية

أ.م.د اسراء خليل فياض
كلية التربية، الجامعة المستنصرية، العراق

المقدمة:

يبقى الثبات والاستقرار غاية الفرد في مجمل حياته، فالخلود والتموضع فلسفة انسانية تمحورت على خلفية وجود المكان وتعاطفه النفسي مع طبيعة الفرد. فالمكان نهاية الاشياء و المحتوى الواقعي لمجمل الفضائل، والافعال المحيطة بالانسان.

وتعفينا تلك المزاوجة الوجدانية بين المكان والفرد، عن الحديث طويلا عن وطنية المكان، فالاحساس بالمكان يصل ذروة التوحد في قلب الفرد، عندما يفترشه الاخير مهاد لنشأته، وقبرا لجثمانه في اطار الانتماء الجغرافي فلا يوجد جسم من دون حيز مكاني خاص به، فهذه المزاوجة الحسية واضحة للكشف عن مفهوم الوطن، وعلاقته القائمة على الألفة والتألف النفسي مع الفرد منذ الخلقية الاولى بصورة لا يمكن انكارها.[١]

وتطرح هذه المقدمة التعريفية، مفهوما واضحا للمكان الذي يتناوله الشاعر العربي في مجمل العصور الشعرية، اذ شكل لديه عنصرا وجدانيا حيا ومتحركا في خصوصية تجربته الشعرية كونه ((جزءا من كيان عضوي يخضع لمطلقات القصيدة الكلية))،[٢] فهذا العنصر الوجداني يعبر بصدق عن نظم (الشاعر) وعلاقته بواقعه ما بين اختلافا وائتلافا من خلال جمالية الشكل المكاني بينهما. ولقد تمكن الشاعر العربي من شدة تعلقه بالمكان وتفاعله مع مداه النفسي والحسي، ان يوظفه وفق ما يريد وان يلصقه بفيض تجربته الشعرية. ومن منطلق تلك الرؤية التوظيفية طرح المكان لدى الشعراء دلالات رمزية خرجت عن هذا الأثر في صورة فاعلة في نظمهم.

---

[١] ينظر:رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق د.محمد عبد الهادي ابو ريدة: ج٢/ ٢٦ دار الفكر العربي،القاهرة، ١٩٥٠.

[٢] الاستهلال في البدايات في النص الادبي: ياسين النصير: ٥٦، ط١، دار الشؤوان الثقافية، بغداد، ١٩٩٣.

ولا ريب ان نلمح ذلك الاثر الجلي للمكان لدى شعراء مصر في القرن الثامن الهجري في العصر المملوكي تحديدا، ومنهم الشاعر المصري عبد الرحيم بن احمد بن علي، اليماني، المشهور بالشاعر البرعي في اطار المطابقة لفاعلية المكان في الشعر العربي، اذ نجد بروز المكان لدى البرعي ضمن الغرض الشعري الغالب لديه فيوظفه بما يجول في خاطره، وما تعتمل نفسه من مشاعر مختلفة. اذ وجدنا في ديوانه تنوعا للمكان ما بين مكان حقيقي ملموس كالامكنة كنجد والحجاز، وديار الجزيرة العربية، وما يحيط الشاعر من اماكن، وبين مكان مجازي ومتخيل غير ملموس في رحاب خيال الشاعر وفلسفته الادبية.

ويبدو ان المكان الحجازي هو المكان الذي شكل مهيمنا محوريا في نصوص البرعي كونه يرتبط ارتباطا وثيقا بالغرض الغالب على شعره وهو المديح النبوي، فيكون المكان شاهدا فاعلا في نسج الاحداث النصية وبذلك كان حديثنا الغالب عنه وابتدأنا به، ويتخذ هذا المكان بعدا رمزيا من خلال العناصر الجسدية كالعين والقلب، في صفات واحوال وهيئات، اما المكان الاخر في شعره فهو المكان المتخيل الذي لا يشكل حيزا واقعيا ضمن بقعة أرضية بل يكون ضمن مخيلة الشاعر وثقافته ومعتقداته الدينية فالامكنة الغيبية ما بين الاخرة وحوض الكوثر والجنة والنار وما بين مكرمات تشفعية و وسائل دينية ارتبطت بشخص الرسول الكريم وغيرا من الابعاد كانت لنا تلك الوقفة البحثية.

المحور الاول: وقفات... البرعي (الانسان-الشاعر)... المكان (كيانا نفسيا-ابداعيا)

البرعي من اشهر شعراء التصوف والمدائح النبوية في مصر، هو عبد الرحيم بن احمد بن علي، اليماني المتوفي سنة (٨٠٣)هـ بين المدينة وميناء ينبع الحجازي على البحر الاحمر، وقيل انه من سكان النيابتين في اليمن، نسبته الى برع بوزن عمر جبل بتهامة، تحدثت عنه وعن شاعريته الكثير من المصادر والتراجم، له ديوان شعري مطبوع اكثر من مرة.[١]

عاش البرعي في عصر المماليك الذي شهد الكثير من الثقافات، اذ كثرت المعارف الادبية والثقافات في هذا العصر ونهض العلم في مصر خلال الحكم المملوكي، فقد اهتم السلاطين بأنشاء المدارس والمساجد وكانت القاهرة عامرة بدور العلم والعلماء والمكتبات مملوءة بمجالس العلم

---

[١] ينظر:الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، خير الدين الزركلي: ج٣/ ٣٤٣، ط٣، بيروت، ١٩٦٩م، معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ): ١/ ٣٠٥، ط٢، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م، معجم اعلام شعراء المدح النبوي، د. محمد احمد درنيقة، قدم له وضبط اشعاره، د. ياسين الايوبي: ٢٢٦، منشورات دار مكتبة الهلال-بيروت-(٢٠٠٣م.

والادب وانتشرت اسواق الكتبيين والوراقين.ومن المدارس التي نشأت في هذا العصر المدرسة المنكوتمرية، والبرقوقية، والمدرسة الفراتية، وظهرت الكثير من المؤلفات التي تعكس هذه الحياة وتطورها الادبي ومنها (نهاية الارب للنويري، ومسالك الابصار للعمري، صبح الاعشى للقلقشندي...) وغيرها من المؤلفات المهمة[١].

اما لفظة المكان بأبعادها النفسية والمادية، فقد كانت تدور في فلك المعاجم اللغوية والادبية، اذ كانت محور اهتمام النقاد و وقفاتهم في تحديد ماهية المكان وما يقترن به من ابعاد، فاتفق ان المكان يأتي بمعنى المكانة او المنزلة والجمع ((امكنة كقذال واقذله، واماكن جمع الجمع))[٢] اذ يطفوا معنى الموضع عليهم في مفرد وجمع، اي هو((مكان الانسان وغيره...))،[٣] في تحديد لموضع كينونة الشيء واستقراره فيه،[٤] ويغوص القرآن الكريم بهذا المعنى بقوله تعالى:((**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْناهُمْ على مَكانَتِهِمْ**))(سورة يس:اية٦٧).وتوظيفه بحسية تامة بقوله تعالى:((**إذ أنتَبَذتْ منْ اهلها مكاناً شرقيا**))(سورة مريم:اية ١٦). واقتران المكان بأجواء معنوية كقوله تعالى:((**أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواءِ السَّبيل**))(سورة المائدة: اية ٦٠)، وقوله تعالى:((**مكانَكُم أنتم وشركاؤكُم**))(سورة يونس:اية٢٨) في صيغ ودلالات مشتقة بمعنى لزوم المكان[٥].ويبدو ان تعالق هذا المعنى المجازي واللغوي للمكان في النفس، دفع لظهور الفاظا اخرى تدور حوله من المترادفات في محور التنقل، والحركة، والاستقرار، ومنها المحل، والخلو، والحيز، والملاء.

ويكشف المفهوم الاصطلاحي للمكان عن ملامح فلسفية تسقط على زواياه وابعاده، فالمفهومان الاصطلاحي والفلسفي للمكان يرتبطان بعضهما ببعض وصولا الى دلالة الشيء على صاحبه بشكل او بآخر. اذ نظر النقاد القدماء الى المكان نظرة لاتخلو من نزعة اسطورية، متشبعة من الفلسفة اليونانية، في رؤيتها للمكان في ضوء الحركة والزمان والتناهي واللاتناهي والجسم

---

(١) ينظر: السلوك في معرفة دول الملوك: للمقريزي: تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، (د_ت).١١٠٠/٣، تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، ١١٣/٣، طبعة دار الهلال، (د،ت).

(٢) لسان العرب المحيط (معجم لغوي علمي)، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، قدم له: عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، ونديم مرعشيلي، دار لسان العرب، بيروت، (د. ت):مادة (مكن).

(٣) جمهرة اللغة، ابن دريد، ابو بكر محمد بن الحسن الازدي البصري، (٣٢١هـ):١٧١/٣، دار صادر، بيروت، عن مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط (اوفسيت)، ١٣٤٥هـ.

(٤) ينظر:العين، ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي، تح:د.مهدي المخزومي، ود. ابراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢م، ٣٨٧/٥، والكليات (معجم في المصطلحات والفروق المعنوية)، ابو البقاء ايوب موسى الحسيني الكفوي، (ت١٠٩٤هـ) تح: د. عدنان درويش ومحمد المصري، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦: ٢٢٣/٤.

(٥) ينظر: الموسوعة القرآنية، تصنيف ابراهيم الابياري وعبد الصبور مرزوق، مطابع سجل العرب، القاهرة، د.ت، مادة (ك ون): ١٢٥/٤.

الطبيعي، اذ اتخذ المكان طابعاً مثيولوجياً لدى الفلاسفة اليونانيين في انقسامه الى عوالم رئيسة ثلاثة ((السماء، والارض، والعالم السفلي، وهي مأهولة بالآلهة والبشر والاموات على التوالي))[١] حتى عد المكان لديهم بُعدا موهوما يشغله الجسم ويسمح له بنفوذ ابعاده فيه فهو حاوياً وقابلاً للشيء[٢] بل هو ((الحاوي الاول للجسم))[٣] او((الحدّ اللامتحرك المباشر للحاوي))[٤] واتفق الفلاسفة اليونان على احقية اثبات وجود المكان الذي طالما يشغلونه بالفعل ويستطيعون الحركة والانتقال منه الى مكان آخر وبذلك يمكننا ادراك حقيقة المحسوسات المنعكسة على سطحه.[٥]

ولم يخرج الفلاسفة المسلمين عن ذلك الخط الفلسفي في تأثر ملحوظ بالفلسفة اليونانية واعلامها، فالبعض يرى ان المكان هو((الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه ابعاده))[٦] وهو على قسمين احدهما مبهم، والآخر معين متحدد، اما البعض الاخر فوسم المكان بمفهوم خاص فهو النهاية المحيطة للاجسام، في التقاء المحيط والمحاط به[٧] ورغم الاتفاق الا ان بعض الفلاسفة العرب خرجوا من مظلة اليونان ليشرعوا ان للمكان مفهوما مطلقا في خواصه للبقاء لذا فهو لايرتبط بوجود المتمكن، وهو مضاف لارتباطه بوجود من فيه، ليخلصوا بهذا الاختلاف الى حقيقة ان المكان لديهم هو((السطح الباطن من الجرم الحاوي المماس للسطح الظاهر للجسم المحوي)).[٨]

وما بين فصل و وصل لتلك الآراء الفلسفية، يبقى المكان جزءا مهما في حياة الانسان بما فيه من حركة وهندسة وجمال، وصولا الى فن يتغنى به الشعراء ((فالمكان الذي ينجذب نحوه الخيال لايمكن ان يبقى مكاناً لامبالياً، ذا ابعاد هندسية وحسب. فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس

---

(١) عالم الزمان، المكان،عند قدماء العراقيين، زهير محمد:١٠٧، مجلة آفاق عربية، بغداد،ع٨، س٩، ١٩٩٤.

(٢) ينظر: مدخل جديد الى الفلسفة، د. عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٩: ١٩٦.

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم: ١٨٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة، ١٩٣٦.

(٤) موسوعة الفلسفة، د.عبد الرحمن بدوي،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط١، ١٩٨٤: ١٠٩/١.

(٥) ينظر: تاريخ الفكر الفلسفي، الفلسفة اليونانية من طاليس الى افلاطون، د. محمد علي ابو ريان، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦: ج١/ ٢٠٥. ٨٤/٢،

(٦) التعريفات، ابو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف، تح: د. احمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦: ١٢٥.

(٧) ينظر: رسائل الكندي الفلسفية: ١٦٧/١.

(٨) الحسن بن الهيثم، سعيد الدمرداش، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩: ٤٠، ينظر:اصول الفكر الفلسفي عند ابي بكر الرازي، عبد اللطيف محمد العبد، مكتبة الانكلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٧: ١١٤.

بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز.اننا ننجذب نحوه لانه يكثف الوجود في حدود تتسم بالحماية))[1] ليصبح المكان ظاهرة ابداعية تتخلل اوصال الصورة الشعرية لتصوغ لنا محطات ارتباط الانسان بوطنه والعيش باحضانه فهو يحن اليه ويتوق لرؤيته دوما والى تعفير جسده بتربه، كيف لا وهو موطن احساسه وحبه للحبيبة، والذكريات التي هي بين كهولة وطفولة. فالمكان اصبح بتلك المكونات النفسية كونا وكياناً متكاملاً يبذل الفرد عمره لاجل ديمومته، وهو ما جعله عنصرا فاعلا ومتحركا في تجربة الشاعر العربي فهو بابعادة الهندسية والفكرية والنفسية جزء من كيان القصيدة ومنطلقاتها الشعرية، ويستهلم بماديته وبوجوده خيال الشاعر وحسه ليكون محورا موضوعيا مهما يخلق صورا فنية ترتقي الى الجمال المادي والحسي معا.

لذا فان اكثر الصور الشعرية تستمد قيمتها من الابعاد المعنوية والمادية للمكان الذي يطرحه الشاعر ما بين ألفة واختلاف وهو امر يتحكم في تقسيمه الانفعال العاطفي ودوافع التجربة الشعرية. فالشاعر يقود المكان لموضوعية الصياغة الفنية للصورة الشعرية بما يخدم غرضه الشعري ومطلبه الشخصي لذا تعاقبت صور المكان في النص الشعري في اقسام وامكنة مختلف، ولعل الشاعر البرعي وقف على جمالية ذلك التنوع المكاني، ما بين مكان موضوعي ومتخيل، وكانت الالفة تطفوا على سطح الامكنة التي وظفها ما بين حقيقة ومجاز.

المحور الثاني: المكان الحجازي:

وهو كل مساحة او بقعة من الارض استقر في زواياها الانسان بألفة ومحبة وامان وشعر بدفء الذكريات. وهو المكان الحقيقي الذي يرتسم له بُعداً واقعياً على أرض الواقع دنيوياً بسكانه ويوظفه الشعراء في السياق النصي توظيفاً شعرياً فاعلاً. ويبدو ان هذا المكان كان الاكثر في شعر البرعي من خلال نظمه للغزل والمدائح النبوية. اذ دفع نظم الشاعر البرعي للغزل ظهور الامكنة وبصورة ملحوظة، لارتباط المكان بالمرأة الحبيبة، في ذكريات معها فالشاعر((لم ينشغل فقط بتصفح صور وجود الاحبة في ذاكرته، انما كان مهموماً بذكريات الامكنة التي شهدت قصص حبه، فكان يسيل به الحنين الى كل مكان وشيء ونقطة))،[2] لذا تتداخل الامكنة مع الغزل الصريح حينما يذكر المرأة فهو بالوقت نفسه يذكر المكان الذي التقيا به، وشهد محبتهما، لذا فالامكنة في نظر الشعراء ولاسيما شعراء الغزل اسلوبا لتذكر الاحبة،لذا اتخذ الشاعر البرعي

---

[1] جماليات المكان، غاستون باشلار، ت: غالب هلسا:٣١، دار الجاحظ للنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٠.

[2] الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ١٩٨٧: ١٥١.

غرض الغزل مفتاحا للحديث عن الامكنة في دائرة تقود الى حب الامكنة بوجود الحبيبة، اذ يقول:[1]

مَثِّلْ لِعينِكَ خِدراً في الحمى ضرِبا وانْشُدْ فؤاداً مع الاحباب مغتربا

وأبك المنازل بعد الطاغين دماً ان لم تر الدمع يَقضي عنك ما مضى

ولا تلم في الهوى العُذري ذا شجن في الغورِ هَبَّ له ريح الصَّبا وهجَّا

فالديار من حمى والغور قد فجرت ذلك الهوى العذري، في صراع ما بين غربة الظاعنين ونسيم المشتاقين ودموع المودعين، في تشبيه لجمالية المحبوب وسط تراسل حسي ما بين الشم والسمع والبصر.

وتتحقق الرؤية المكانية من خلال مفردات الرحيل (الوداع، الرحيل) لتتساق الجمالية الشعرية من خلال السياق الغزلي الذي كان مهاد الشاعر البرعي في اغلب اشعاره، ومن ذلك قول البرعي في مقدمة أحدى قصائده النبوية.[2]

دعاني للوداعِ فَدبْتُ وجداً فَهَلْ بَعْدَ الوداعِ لنا لِقاءُ

اذا رَحَلَ الحبيبُ فما حياتي وموتي بعده إلاّ سواء

فوداع الحبيب جسد معاني الغربة المكانية وصولا الى الموت البطيء المتحقق بالفعل (ذاب) وسط تساؤلات مدعومة بالاستفهام الاستنكاري بـ(هل) وتضاد فظي بـ(دعاني–الوداع) و(وداع–لقاء) و(حياة–موت) لتثري التأرجح بين الاستقرار وعدمه الى تجليات الامكنة. وقد تكررت الصورة بقوله:[3]

أهل ترجع الدار بعد البعد انيسة وهل تعود لنا أيامنا الاول

يا ظاعنين بقلبي أينما ظعنوا يا نازلين بقلبي أينما نزلوا

ترفقوا بفؤادي في هوادجكم راحت به يوم راحت بالهوى الابل

---

[1] ديوان البرعي ت(٨٠٣هـ) اعتنى به، عبد الرحمن المصطاوي: ص٣٨–٣٩، دار المعارف–بيروت– ط١، ٢٠٠٧م.

[2] ديوانه: ١٣،١٤، وينظر في مثل تلك الأماكن ورموز الرحلة:ص٣٧،٣٤،٣٣،٢٥.

[3] ديوانه: ص ١٦٦.

ان تلك الاسقاطات الغزلية دفعت الى الوقوف على امكنة متغيرة مقرونة بحركة المحبوب في رمزية شعرية اختص بها السياق الغزلي ولاسيما المعنوي والعذري منه، بقوله [١]:

فتلك على بعد الديار وقربها　　قريبة عهد الحبيب المهاجر

فالتجلي المكاني لا يكون فعلا متحققا الا من خلال التغني بقرب الاحبة في مستقر ديارهم وغربتهم عنها في هجرة متعمدة احيانا. في تأرجح اوصلنا التضاد اللفظي إليه بـ(بعد–قرب) و(قريبة–مهاجر).

على ان المرأة لم تك سببا رئيسا احيانا في ذكر المكان، ليحتل الوطن المكان الاول في تجربة الشاعر في خصوصية هويته وانتمائه العرقي لذا اصبح تعلقه به امراً محتوماً،[٢] لذا يشير البرعي للأنتماء إليه ولاسيما في غزلياته، كقوله:[٣]

أفـي (نيابتي برع) تقيم　　وقـد رحل الاحبة يا نديم؟

وما لك والتخلف عن فريق　　متى رحلوا حللن بك الهموم؟

فالشاعر البرعي ينتمي النيابتين في اصله ومنبته، لذا يركز على المكان في حركة الحبيبة وفعلها ما بين الحضور والغياب، مستفهما بذلك بـ(أ، ما، متى)، لذا فهو يتغنى بموطنه في اشارة الى شخصه، كما في قوله:[٤]

طيف الخيال من (النيابتين) سرى　　الى الحجاز قوافي مضجعي سحرا

سـرى على البعد دارينا ينم به　　روح النسيم فيـهدي مندلا عطرا

فكم وكم حاز من سهل ومن جبل　　ومن وعور الـى ام القرى وقرى

فالعلاقة بين الوطن والانسان علاقة تقوم على اساس فعل الولادة والعطاء والسنوات والمعايشة، فما بالك بكونه مهاد مسرى خياله نحو الاحبة مارا بقرى واوديه في معاناة لإثبات صدق

---

[١] ديوانه: ١٣٢.

[٢] ينظر:الاتجاه النفسي في نقد الشعر، د.عبد القادر فيدوح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٢: ٢٥٢.

[٣] ديوانه: ١٩٥.

[٤] ديوانه: ١٠٨ وينظر كذلك: ١٥٢.

المشاعر، لذا نجد ذكر موطنه ممزوجا برحلات مدفوعة بنداء وطلب الى غايات ذاتية اخرى، كقوله:[١]

يا رائحا من ربا (النيابتين) على وجناء مجفرة الجنبين شمـلال

دعها تنخ فـي ديار الغانمية في روض أريض لذي جود وإفضال

وتتراصف الرؤى المكانية في السياق الغزلي ليفتتح النصوص المدحية النبوية، اذ نظم البرعي المدائح النبوية وشعر الصوفية بكثرة ما بين رموز واشارات، واشواق غمرت قلوب الشعراء قديما الى وقتنا الحاض[٢] فالمديح النبوي فن قديم ظهر منذ القرن الأول للهجرة، في امتزاج مع الاغراض الدينية كالزهد والتصوف والحكمة، الا انه استقل في القرن السابع الهجري في ظل الاضطرابات والغزوات التي احاطت بالامة العربية، ليكون فنا خالصا بوحدته الموضوعية ومكتملا بذكر النبي **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** ومآثره وصفاته الخلقية والخلقية.[٣]

وكان لظهور الصوفية الاثر في انتشار المدائح النبوية في جعل محبة الرسول جسرا ايمانيا وخطوة اولى نحو الايمان بالله سبحانه وتعالى، وشفاعته الصلاة عليه والتوسل طريقا موصلا إلى الله والتقرب إليه، وسط تشجيع السلاطين الأيوبيين والمماليك، للناس بالحج والعمرة[٤] لتنطلق السنة الشعراء وبكثرة نحو نظمها، ومنهم البرعي، إذ يقول:[٥]

أنسْمَةُ طِيبٍ أم صَب طيبَةً هَبَّا سُحَيْراً دَعى قلبي فأسْـرَعَ مالني

وطَـلْعَةُ نُورِ أم نُورُ أَحْمَدٍ تشَعشَعَ حتى شَقَّ ساطِعُهُ التُرْبـا

ومازلْتُ استسري النسيمَ لأرضِيهِمْ على بُعْدِ دارَيْنا واستمْطِرُ السُّحبا

---

(١) ديوانه: ١٧٦.

(٢) ينظر:المدائح النبوية في الأدب العربي، د.زكي مبارك، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت): ١٧.

(٣) ينظر: الأدب في بلاد الشام (عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك)، د.عمر موسى باشا، ط٢، المكتبة العباسية، ١٩٧٢م: ٤٠٨.

(٤) ينظر: الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد(٥٤٧هـ-٦٥٦هـ)، د. عبد الكريم توفيق العبود، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م:٢٧٠-٢٧١.

(٥) ديوانه: ٢١.

واثمَلَهُ مَـرُّ النسيمِ فما دَرى أنسْمَةُ طِيبٍ أم صَب طيبـةٍ هَبَّا

وما ذالَ إلاّ رَواحُ رَوضـةٍ جَنَّةٍ ثوى في ثراها سيد العَرَب والعَربا

احالت السياقات المكانية في الغزل الى التدرج الموضوعي للقصيدة، فالأنوار الحجازية تتمظهر بجمالية المكان حيث وجود الأنوار المحمدية فيها وثرى سيد العرب، في رؤية شعرية تحققت بحوار مظاهر الطبيعة فالتكرار في ابداعه الموسيقي انسجم مع الصور الحسية ومنها الشمية بـ(نسمة طيبة) لتهيج اشواق المحب وتصب انظاره نحو طيبة بصورة بصرية (نورية) تجسدت بانوار المصطفى حيث النور المُتم. وتتكرر مثل هذه الصورة المكانية في قوله.[١]

بالأبرقِ الفَردِ أطلالٌ قديماتُ لآلِ هِنْـدٍ عَفَتْهُنَّ الغماماتُ

ومَلْعَبٍ لَعِبَتْ هُوْجُ الرِّياحِ بهِ كأَنَّهُمْ فيهِ ما ظَلُّموا ولا باتُوا

تَنَكَّرَ العَلَمُ الغَربْيُّ من أَضَمٍ وأَقْفَرَتْ بَعْدَ بَين الرَّكْبِ راماتُ

تشتيتهُمُ جَمَعَ الأَحْزانَ في لبَدي فالَهم مُجتمِعٌ والرَّكبُ اشتات

فالبرعي وظف الحجاز والجزيرة العربية، متغنيا بها وبرموزها ونسائها وعقائدها ومقدساتها مقلدا خطوات من سبقه من الشعراء بتقديمها كمطالع للقصائد، في تعلق نفسي لرؤية واضحة للمكان الذي ضم سيرة النبي ورفاته في رسالة سماوية خالدة، لتصبح شكلا وجدانيا ظهر بسياقات غزلية، وهو كفن ملحوظ عرف بالحجازيات امتزج مع المديح النبوي في العصور المتأخرة ولاسيما لدى شعراء العراق[٢] ثم تداوله الشعراء وانفردوا بها ((واستحدثوها مثله في ذلك مثل مديح الرسول سواء بسواء))[٣] لذا اعطت الحجازيات فعل المكان في حقيقة انها سميت بذلك من الحجز، اي الفصل بين الشيئين، لأنه فصل بين الغور والشام والبادية، وحجز بين نجد والسراة، وحجاز هي الجبال ايضا في بلاد معروفة.[٤]

---

[١] ديوانه: ٥٠.

[٢] ينظر: الشعر العربي في العراق: ٢٨٩.

[٣] الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري (دراسة في الأدب المصري)، د. علي صافي حسين، دار المعارف، مصر– القاهرة، ١٩٦٤م: ٢١٨.

[٤] ينظر: لسان العرب:مادة (حجز).

فتغنى الشعراء ومنهم البرعي بذكر الاماكن الحجازية ضمن أحد الملامح السيميائية في الرؤية المكانية المتلاحمة السياق ومن ذلك قوله متغزلاً بالكعبة:[١]

مـَنْ لِنَفسٍ ثَنـاها	**بُعـْدُها عن بِناها**
أهْـلَها فـي زَوُدٍ	**وَهــواها وزاها**
كلــما لاحَ بَرْقٌ مِن	**(جِيـادٍ) شَــجاها**
فَبَـكَتْ واستفـادَتْ	**راحــةٌ فـي بُكاها**
وتـراءت بِـنَجدٍ	**روضــةٌ وميـاها**
وديــاراً لليــلى	**فــاحَ مْكِاً ثَراها**
و زمــاناً يُضافي	**رامةً ولِــواها**
لَيْـتَ لَيْلـى رَعَتْ في	**بُعْـدِها مَنْ رَعاها**
وتــدانَتْ يـصَبٍّ	**ليس يــهوى سِوَاها**

فالرموز المكانية (رامة، وزود، جياد، نجد) بعثت الشوق والحنين لساكن المكان (ليلى) وهي من رموز الذات الالهية، والتغزل بوشح وجداني بالنفحات والرموز الصوفية، لتلقي بظلالها على المتلقي مهمة فك شفراتها الرمزية.

ويبدو اثر هذا الرمز بابعادِه الصوفية واضحة في شعر البرعي، في تجليات مكانية منبثقة من الرحلة المكانية حيث خطاب رفقاء الرحلة، إذ يقول:[٢]

يا خَليليَّ عُجا	**بي أُشاهِدْ رُباها**
وأُقبِّلْ تُراباً	**عَطِراً مِن شَذاها**
وأُحَيي مَغَاني ر	**بْع ليلى شِفاها**

---

[١] ديوانه: ٢٧١، ٢٧٢.

[٢] ديوانه: ٢٧٢.

وتراني أدْنى	**موضِعٍ من خِباها**
فَعَساها تراني	**مَـرَّةً وأراها**
إن راحي ورُوحي	**حيثُ عَمِى حِماها**
وأمانيُّ قلـبي	**قُبْلَةٌ من لماها**
بهجة الحسن كم من	**عاكفٍ في قُباها**

ان تقنية القناع اسندت تلك المعالم الصوفية في رمزها للمكان المقدس وثرى الحبيب والأرض الحجازية، متحققة بالتلاقح الضمني بين الدلالة المكانية والدلالة الانثوية. اذ تحمل الاسقاطات الحسية من عكوف، وتعفير، وشم، وتقبيل لثرى تلك الارض دلالة قدسية لصاحبها في رمزه الانثوي (ليلى) فضلا عن تكرار العطف بالواو لبيان انسابية تشوقه لساكني تلك الديار ورموزها الدينية.

لقد وجد البرعي ضالته بتلك الحجازيات في تشوق يدفعه الى الترحال اليها ولاسيما إلى الثرى المحمدي في رحلة مجازية نفسية، بقوله:[١]

فأن أنَسَـتْ غيابات الفؤاد بهم	**فهم أحبابُ قلبي يا غياباتُ**
فَيا حماماتِ وادي البانِ شَجْوكِ في	**ظِلِّ الأراكِ شجاتي يا حماماتُ**
و يا أثيلاتِ نجدٍ ما لِعَبَتِ ضحى	**إلاّ لَعِبْـتِ بقلبي يا أثَيلاتُ**
تُهيجُ لوعة قلبي المستهام إذا	**هَبَتْ بِنشرِ الصَّبا النجدي هَبَّاتُ**

فالعناصر الطبيعية برمزيتها بـ(الحمامات والاثيلات الصَّبا النجدي) حققت دلالة مكانية بصورٍ شعرية ناطقة، فالتراسل الحسي بين البصر والشم ما بين النور المحمدي الخالد في النفس، وبين صبا نجد قد زاد عبق ونور تلك الامكنة في منولوج حواري بينها وبين الشاعر. لتبقى زيارة تلك الديار الحجازية وحث الركب لرؤية ما حوته من انوار قدسية دون الديار الاخرى مطلبه في رحلة، بقوله:[٢]

أَنِخْ بجنابهِ الانضاءَ وأَنْبُلْ	**لزائِرِهِ المَوَدَّةَ والصَّفاءَ**

---

[١] ديوانه: ٥٠.

[٢] ديوانه: ١٨.

وقل للراكب إن هجعوا: فأني أرى برق الغوير إذا تراءى

ومَنْ لي أَن أَزْوركَ بَعْدَ بُعْدٍ صباحاً يا مُحَمَّد أو مساءَ

فالشاعر منجذب الى تلك الانوار المحمدية متشوقا الى زيارتها دون وقت محدد، وهو ما تكرر كثيرا في شعر البرعي، بقوله:[١]

ان حَدثَ الرَّكب عن نجدٍ بكى شجناً وان رأى النَّار في نَجْدٍ بكى طربا

وفي فيض الاشواق تقابل تلك الرحلات دعوات بالسقيا لديمومة تلك الامكنة في رغبة نفسية صادقة للمعايشة المكانية فيها، إذ يقول:[٢]

خليليَّ اربعا بُربُوع نَجْدٍ نُجَدِّدْ عَهْدَ مَعْهَدِها الخَرابِ

وتنزِلُ مَنْزِلَ الخِلانِ منها ونَرْوى من مناهلها العذابِ

ماَثِرَ جِيرَتي وديارَ أَنْسي ومألفَ كُلِّ عَيْشٍ مُستطابِ

سقى شِعْبَ الأراكِ وما يليه من الاقطارِ مُنسجمُ السَّحابِ

و روى روضتهِ العلمين حتى تناهى الرَّيُّ مُخْضَرَّ الروابي

لقد اسهمت الطبيعة في تمثل حقيقي للمكان، من خلال توفيرها الاجواء بأنهارها وجبالها وسهولها، وما تفضيه من حياة المرح والطرب على الامكنة، فضلا عن كونها مكانا اليفا يلجأ اليه شاعر للتعبير عما يعتمل في خواطره من مشاعر صادقة[٣] لذا نجد تجسيد البرعي للعناصر الطبيعية من برق وماء ومطر وتوظيفها بصورةٍ مجازية ليحقق ذلك الاستنطاق المكاني الذي امطر عينيه دماً وماءً، في رحلةٍ حجازية، بقوله:[٤]

أرى بَـرْقَ الغُوَيْرِ إذا تَرَاءَى بأَقْصـى الشَّام زَوَّدني بُكاءَ

---

[١] ديوانه: ٣٩

[٢] ديوانه: ٤٤.

[٣] ينظر:الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي:د. بهيج مجيد القنطار، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٤٧.

[٤] ديوانه: ١٥، وينظر: ١٥٤-١٥٥.

ومـا عَبَرَ الصَّبا النَّجديُّ إلاّ ... لِيُمْطِـرَ ناظِـريَّ دَماً وماءَ

بحَقِّكَ هل سألْتَ حُلُولَ نَجْدٍ ... ألــم يجِدوا لِفُرْقَتِنا النقاءَ

وَهَل لَكَ بالخِبا المَضْرُوبِ عِلْمٌ ... فَتُعلِمني بِمَنْ ضَـرَبَ الخِباءَ

بَقيـت أُسائِلُ الرُّكبانَ عَمَّنْ ... أقـامَ بـذي الأراك ومن تناءى

وفــي الحنافِ طيبة هاشِميٍّ ... تُصَرِّفُهُ السَّمحَةُ حَيْثُ شـاء

ان الهيمنة الحجازية المتمثلة بـ(نجد) أسهمت في توليد الدلالة الشعرية للمكان، اذ دفعت اسلوب الاستثناء بـ(وما عبر...الا ليمطر..) والأستفهامات الاستنكارية الذاتية بـ(هل سألت، هل لك، ألم يجدوا، بقيت أسائل) الشوق إلى طيبة حيث ثرى الحبيب المصطفى **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** هاشمي النسب.

على ان التغني بالحجازيات في مشهدها الطبيعي، لم يكن غاية الشاعر البرعي، وانما ارادها جسرا يوصل بين ذاته وغايته وهي الانوار المحمدية التي تقبع في ارضها، وقد صرح بذلك قائلا:[١]

اذا هب الصبا النجدي وهنا ... بريح الرند اطربني انتشاقا

ولم أهو الكثيب وساكنيه ... ولا مصر الخصيب ولا العراقا

ولا شوقي لكاظمة ولكن ... الـى مـن ساد امته وفاقا

محمد المخصص اسم احمد ... من المحمود كان له اشتقاقا

فهو ينهي شوقه بـ(لا) ويجزم بـ(لم) رافضا مجمل علاقاته واشواقه مع الامكنة (نجد، مصر، العراق، كاظمة) فحنينه لمن اشتق من فعل الحمد اسمه فهو احمد ومحمد ومحمود بصفاته وخلقه. والبرعي يؤكد حقيقة موقفه مرة اخرى حين يعلن ان الكعبة هي مقصد حبه واشواقه لتلك الديار، بقوله:[٢]

يا كعبة الله كل القصد أنت وما ... يحن ذو شجن إلا لذكراك

---

[١] ديوانه: ١٤٧.

[٢] ديوانه:

ومن بوادر هذا التصريح، نصوصا شعرية حددت المكان بسيادة النبي **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** لتلك الاراضي، بقوله:[١]

سيـد ساد من فـي أرضه وسماها

هاشـمي نماه مـن قريش ذراها

اذ يتكأ تحديد المكان على رجوعه لقريش في نسب هاشمي ابا وجدا، قد أورث بذلك سيادة الكون، وهو امر صرح به كثيرا، بقوله:[٢]

محمد سيد السادات من مضر حامي الحمى فرع أصيل طيب زاكي

هداية الله في شام وفي يمن وخـيرة الله مـن رسل واملاك

مهذب قرشي الاصل يشرف عن حـام وسام وعن روم واتراك

ولافراد مأثر الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** وصفاته عمد الشاعر الى حشد مكاني بـ(مضر، الحمى، الشام، اليمن، قريش، حام، سام، روم، اتراك). ويبدو ان ذلك النسب الشريف كان مدخلاً موفقا لتحديد الامكنة في شعر البرعي، كقوله:[٣]

وان عثرت بك الأيام فانزل بأكرم من تظلله السماء

نبي هاشمي أبطحـي شمائله السماحة والوقاء

فهو يذكر البطحاء نسبة الى بطحاء مكة المكرمة في اطار وجود بني هاشم وسكنهم من اجداد الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**.

وفي رصدنا للامكنة الموضوعية في شعر البرعي، وضعنا يدنا على خطوط وملامح كبيرة لذكره للقبر ضمن الامكنة الأليفة والمحببة لديه، متجاوزا ما يثير القبر الأحساس بالعداء والضيق لدى البشر، بقوله:[١]

---

[١] ديوانه: ٢٧٣.

[٢] ديوانه: ١٥٤-١٥٥.

[٣] ديوانه: ١٤.

أهذه طيبة ما بين منبرها وقبرها روضة مسلوكة السبل

ام للصفا والمصلى والنقا ومنى والحجر والحجر المخصوص بالقبل

فالشعور بالحزن والموت في رؤية القبور قد تبدد مع قبر الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**، كونه روضة من الجمال والاخضرار لصاحب حي لا يموت في الضمير الانساني. وهو قبر مبهج ومنير بقدر صاحبه، فكيفما كان ثرى الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** مأواه بقوله:[٢]

قبرا تشاهد نورا حين تبصره عيني وأنشق مسكا حين ألثمه

فالانوار المحمدية والروائح العطرة تحيط بجوانب ذلك القبر الكريم في سياق مجازي للصور الحسية ما بين بصر وذوق وشم. ليبقى السلام والأمل بالعيش بأنواره والارتماء باحضانه مطلب الشاعر في كل زيارة، بقوله:[٣]

مني السلام على القبرِ الذي اعتكَفَت فيه العُلى وانتهَتْ فيه النهاياتُ

أرض سَمَتْ برسول الله اشرقَ مَنْ تشرفت فيه آباءٌ وأمَّات

متى أرى النورَ من ارجاء قبتهِ متى تُباشرني منه البشارات

فالقاء التحية والرغبة بالاعتكاف دللت على اشواقه لتلك الابعاد السامية والمشرقة للقبر منتهى غاية المسلمين. ليلفت بسؤال مرتين بـ(متى) وسط صور استعارية مشعة بالنور لذلك الشعور بدهاء كبير.

استطاع الشاعر ان يفتح من ظلام القبر نافذة بالامل بالشفاعة والرجاء لكل زائر او مناجيا لصاحبه، بقوله:[٤]

يا صاحِبَ القَبْرِ المُنير بِشربٍ يا مُنتهى أملي وغاية مطابي

---

(١) ديوانه: ١٨٥.

(٢) ديوانه: ١٩٣.

(٣) ديوانه: ٥١.

(٤) ديوانه: ٤٧.

يا مَنْ به في النائباتِ توسلي وإليه من كُلِّ الحوادثِ مَهربي

ان الفيوضات الروحانية المنتقلة من (القبر المُنير) المكان الحقيقي إلى (المهرب والملجأ) تحققت بأسلوب النداء المتكرر بـ(يا) وبتوظيف مجازي جعل القبر هو بداية ونهاية مطلب المؤمن فهو الملجأ والمهرب من كل الحوادث في هيمنة مكانية متنفذة شعوريا.

وفي تحولات المكان لطالما عرج الشاعر البرعي الى سياقات مجازية اخرى يرتسم فيها النور والألق الازلي، لتتجلى الرؤى المكانية في سياق الصلاة على الرسول محمد **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**، بقوله:[١]

يا رَبِّ صَلِّ على النبيِّ وآلِهِ ما أَمَّت الزُّوارُ نحوكَ يثربا

يا رَبِّ صَلِّ على النبيِّ وآلِهِ ما لاح بَرْقٌ في الاباطح أو خبأ

يا رَبِّ صَلِّ على النبيِّ وآلِهِ ما قال ذُو كرمٍ الضيف مَرحبا

يا رَبِّ صَلِّ على النبيِّ وآلِهِ ما كوكبٌ في الجَوِّ قابلَ كوكبا

يا رَبِّ صَلِّ على النبيِّ وآلِهِ من قابِ قوسين الجناب الاقربا

فالتكرار بـ(يا رب صلي على النبي وآله.... ما..) حقق ايقاعا دلالياً فاعلا للمكان في تقابل كوني ما بين بلاد الارض والسماء في اشادة بالثناء وديمومة الصلاة عليه ما بين تجلي للمكان الارضي بـ(يثرب، الاباطح، ومدى شيم العرب وكرمهم) وبين المكان الاخروي المتمثل بالسماء بـ(الكواكب، قاب قوسين).

وتتجسد محورية العنصر المكاني لدى البرعي من خلال الصفات الحسية، كما يراها بقوله:[٢]

سَيّد سادَة في كُلِّ ثُغْرٍ يُرَوِّي البِيض والأُسَلَ الظّمَاءَ

فالمكان تجلى بلفظة (ثغر) في كناية عن شخص الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** و وجوده من جهة وعن فاعلية صاحبه في الخير والعطاء في صور استعارية تمثلت بـ(يُرَوِّي البيضَ والأُسَلَ الظَّمَاءَ).وتتكرر تلك الصورة مع تفاعل مكاني جديد للقلب، بقوله:[١]

---

[١] ديوانه: ١٩.

[٢] ديوانه: ١٧.

قم له في كل قلب منزل أعد له في كل ثغر مربض

فالقلب يزيد من عمق المزاوجة الوجدانية للمكان من خلال اتحاده مع الثغر في تراسل حواسي ملموس.

ويبدو ان المكان الموضوعي بوجدانيته وحجازية اجواءه وتفاصيله الدقيقة في قبور وحواس، قد انصبت في مفهوم المكان الاليف، وكان الاكثر توظيفا لدى الشاعر البرعي.

المحور الثالث: المكان (المتخيل):

والمكان المتخيل يتحقق برؤية خاص مستمدا ملامحها من الصور المبتكر في مخيلة الشاعر الساعية لتحقيق جغرافية شعرية بديلة،[٢] وهذا المكان قد لا نراه متجسدا على ارض الواقع وانما جسده البرعي برؤية وافكار دينية تؤكد وجوده ضمن اسرار الغيب، وامكنة يدركها فقد المؤمن بالله وسنة رسوله الكريم **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**.

وتتعانق الحجازيات في نسيج تداعي الامكنة الحقيقية وتوجهها الى الاماكن المتخيلة، في كونها مهاد لانطلاق الحقيقة المحمدية وهو امر شرع البرعي بالحديث عنه بالقول:[٣]

أسرى به الله من أرض الحجاز إلى أن قَبلَتْ نعْلَه الحُجُبُ الرَّفيعاتُ

أَدناهُ من قابَ قوسٍ حينَ كَلَّمَهُ بالغيبِ من بَعْدِ ما قال: التَّحيَّاتُ

فمن بواطن تلك الديار خرجت المعجزات وعيا لقدسية تربها، فتلك الحقيقة المحمدية تكللت بمعجزة الاسراء والمعراج وانكشاف الاسرار الالهية في ليلة مباركة استقبل فيها الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** بالتحايا والترحيب. فالعروج إلى السماء العُليا وتداعي الامكنة الالهية، مكرمة لم ينلها احد الانبياء والرسل من قبل وبعد كما نالها النبي محمد **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**، وقد صرح البرعي بذلك بقوله:[٤]

---

(١) ديوانه: ١٣٦.

(٢) ينظر: المكان ودلالته الجمالية في شعر شيركو بيكس: د. فاضل التميمي، شبكة النت www.sabaHaLanbri.com

(٣) ديوانه: ٣٥، ٥٢.

(٤) ديوانه: ٢٦٩.

محمدٌ سَيِّدَ السَّاداتِ مِنْ وَطِئَتْ حُجُبَ العُلا لَيْلَةَ المعراجِ لغلاهُ

فمكانة الرسول محمد **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** وقربه من العرش ما بين تقديس وتحبيب، كان الركيزة الاولى لبدأ تلك الرحلة الوجودية رغم قصر مدتها في ليلة واحدة و زمن استغرق لمحة بصر،[١] للانتقال من مكان الى اخر بقوله:[٢]

ومسرى رسول الله من بطن مكة الى المسجد الاقصى كلمحة ناظر

ان الانتقال من السياق المكاني الأرضي إلى السياق المكاني الآخروي، قد استمد طاقته من الفعل (سرى) لذا عول الشاعر البرعي الكشف عن تلك الفعلية المكانية التي خصت بالرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** بتكرار النداء بـ(يا من) بقوله:[٣]

يا مَنْ سَرى من مَكَّةٍ للمَسْجِد الـ أقْصى على ظَهْرِ البُراقِ المُنجب

يا مَـنْ تَلَقَّتْهُ ملائِكةُ السَّما بخطابِ: أهلاً بالحبيب ومَرحَبِ

يا مَنْ تناهى فوقَ سِدْرَةِ مُنتهى لـعنايَةٍ سَبَقَت وَحقَّ مُوجَبِ

فتداعي الامكنة المتخيلة، جاء من مد المعراج الرموز والدلالات التي تبعث تلك الوجودية الالهية من (البراق، تحايا الملائكة، سدرة المنتهى، والتناهي في السماء العليا). لتمسي معجزة الاسراء والمعراج جسرا للانتقال من المكان الارضي الى الاخروي في حقيقة واحدة، فالامكنة تتهاوى على بساط تلك الرحلة التي كان الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** سائق الظعن والركب فيها، بقوله:[٤]

كَفَتـْهُ كَرامَةُ المِعْراجِ فضلاً بها فـي القُرْبِ سادَ الأَنبياءَ

سَـرى من مَكَّةٍ بِبُراقِ عِزٍّ لأقصى مَسْجِدٍ وعلا السَّماءَ

مفتَّحَةٌ له الابوابُ منـها يجاوِزُها إلى العَرْش إرتقاءَ

---

(١) ينظر: السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وجماعته: ٤٥، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الاولى، ١٩٣٦.

(٢) ديوانه: ١٢٩.

(٣) ديوانه: ٤٨.

(٤) ديوانه: (١٦ ــ ١٧).

فَسُرَّ بهِ الملائكة ابتِهاجاً وَصَلَّى خَلْفَهُ الرُّسْلُ اقْتِداءَ

وكَلّمَ رَبَّهُ من قابَ قَوْسٍ أَلْـهَمَ فـي تَحِيَّتِهِ الثَّناءَ

فالإسقاطات الدلالية المتفجرة من هيمنة المكان الحقيقي المُتخيل تجلت بروحانية بمسير الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** من المسجد الحرام إلى الأقصى في شرعية ألهية.[١]فالسير بدأ بالأمكنة الملموسة من (مكة، المسجد الاقصى) وحط الرحال بأماكن السماء حيث العرش وتواجد الرسل والملائكة بين قاب قوسين في سر من اسرار الوجود الالهي الذ اطلع عليه وبتفرد تام النبي محمد **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم).**

ان اقتران المعراج بالامكنة المتخيلة في رحلة غيبية، دعت الى الوقوف على مكان اخر وهو الدار الاخرة في تضاد للدار الدنيا، فالبرعي يوقن ان حياة الانسان توجز في مكانين (الدنيا) و(الآخرة) في رؤية مكانية لحقيقة الدار الأولى (الدنيا) وزوالها وخلود الدار الآخرى (الآخرة)، في حقيقة جعلها عنوانا لاحدى مقطوعاته بـ(خير الدارين)، بقوله:[٢]

جَوامِعُ الخَيْرِ في الدَّارَيْن تابِعَةٌ بطاعَةِ الله فالزم طاعَةَ اللهِ

والشرَّ اجْمعُهُ في تركِ طاعتهِ فاخْضَعْ ذليلا لِعِزالآمر الناهي

وكَيْفَ يَأمْنُ في الدارين شَرَّهُما مَنْ لَمْ يَكُنْ طائِعاً للأمرِ الناهي ؟ !

فطبيعة مكان الدارين تدفع لظهور خطاب وعظي في ترك ما يعكر صفو دخول الفرد لخيرهما (الجنة) في افعال طلبية (الزم، اجمع، اخضع) وتضاد لفظي (اترك–اخضع) و(الطوع–الامر) و(ذليل–عز).وتتكرر مثل هذه الصورة بقوله:[٣]

اسـمع غرائب مدح لا أريد بها تـحصيل دار ودينار وقنطار

بل ارتجي منك في الدارين رحمة وفـي الاقامة بين الدار والدار

---

[١] قوله تعالى:((سبحان الذي أسرى بعبده من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من اياتنا انه هو السميع البصير))، سورة الاسراء: آية (١).

[٢] ديوانه: ٢٧٤.

[٣] ديوانه: ١٢٧.

فالكثير من النصوص الشعرية، كانت تحمل في طياتها رؤية فكرية زهدية تجسدت في الحكمة والتبصر في احوال الفرد ما بين رضى وقبول في دار أليفة ومحببة وهي (الجنة) أما إذا كان ضد ذلك فالدار الآخرى شقاءً وهي (جهنم).

على ان الرغبة في السكون في دار إليفة دون الاخر، كانت مطلب الشاعر الوحيد، بدعائه بالقول:[١]

وكن رفيقي في الدارين ورحمة وفي الاقامة بين الدار والدار

وتتجلى الرؤية المكانية في السياقات الربانية النبوية الصوفية حيث يغدوا المكان واحداً لأن الله واحدٌ وهو المرجو والمستعان به في الدارين، إذ يقول:[٢]

لِكُلِّ خَطْبٍ مُهِمٍّ حَسْبِي اللهُ أَرْجُو به الأَمْنَ مما كُنْتُ أخشاهُ

واسْتَغْيثُ به في كُلِّ نائبَةٍ دما مَلاذي في الدَّارَيْنِ إلاّ هو

ولا يُعَبَّرُ بالحُلولِ ولا بالانتقالِ دَنا أو ناءَ حاشاه

لقد اقترن حضور الامكنة بوجود معجزات اختص بها النبي **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** في مكرمة وجود كبير من الله سبحانه وتعالى، ومنها حوض الكوثر، بقوله:[٣]

وهب لي منك في الدارين فضلاً واوردني من الحَوْض ارتواءَ

فحوض الكوثر اقترن بفوز المؤمن بالدار المؤتلفة والمحببة وهي الجنة، ليكون شرب ماء الكوثر استحقاقا لذلك الفوز والاجتماع مع رسول الله **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم).**

فشرب ماء الكوثر في خصوصية مكانته في الجنة ارتبط بحصول الفرد على شفاعة الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)**، ضمن المعجزات المحمدية، وهو امر لم ينله احد الانبياء من قبل، في شهادة ذكرها البرعي بالقول:[٤]

---

[١] ديوانه: ١٣١.

[٢] ديوانه: ٢٦٥.

[٣] ديوانه: ١٨.

[٤] ديوانه: ١٤.

لك الحَوْضُ المعينُ كَرَامَةً يا مُحَمَّدُ والشفاعةُ واللواءُ

مقامُكَ تَقْصُرُ الاملاكُ عنهُ وفَضْلُكَ لم تَنَلْهُ الانبياء

فحوض الكوثر حقيقة مكانية فاعلة يوم الحساب، وهو ما يولد انتقال المكاني حيث (حوض الكوثر) الذي يرمز إلى الجنةِ ونعيمها (المقام المحمود) الذي خُصَّ به خير الأنام **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم).**

ويشير البرعي الى امكنة مجازية اخرى متعلقة بالمكان الغيبي في ان شفاعة الرسول **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** هي المكان الفرد الامين خالد في ابداع مجازي وملجأ لكل المسلمين حين تثقل ذنوبهم وتضيف بهم الأحوال والبرعي ينشد ذلك المكان في تصويره لتلك المشاهد الآخروية تصويراً مكانياً فاعلاً، بالقول:[١]

غداةً ترى مَنْ تَحْتَ ظِلِّ لِوائِهِ حَبيباً وحَوْضاً طيباً بارداً عَذبا

عليكَ سَلامُ الله بكـرامةٍ لِمَنْ لا يرى غيْرَ الذُنُوبِ له كسبا

وقُلْ انت يا عبد الرحيم غداً معي بحضرةِ قُدسٍ عندَ مَنْ يَغفِرُ الذَّنبا

وكُنْ من أذى الدَّارين حِصْني فأنني أعُدُّكَ لـي من كلِّ نائبةٍ حَسْب

ومهما تناءت عنك داري فانني لأصبحُ يا شَمْسَ الهُدى جارَك الجَنْبا

فالشاعر نوع ما بين الامكنة الموضوعية والمتخيلة الغيبية في المكانة المحمدية للرسول الأعظم **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** من خلال طلب الشفاعة المحمدية وانتقاله من مكان لأخر وصولا الى القرب منه في حقيقة لصورة الجنة. فالشفاعة اعطت الفرصة السانحة للابتعاد عن المكان المعادي والبقاء في اليف تلك الجنة، وهو امر عول عليه الشاعر البرعي بتحقيقه بتوظيفهِ للفعل (تظلل) في استمرارية الطلب. حيث يقول:[٢]

وكُنْ لي مَلجأً في كُلِّ حالٍ فَلَيْسَ إلى سِواكَ لِيَ التجاءُ
وقُلْ: عَبْدُ الرَّحِيم ومَنْ يَليهِ لَهُمْ في ريفِ رأفتنا جزاءُ

---

[١] ديوانه: ٢٣.

[٢] ديوانه: ١٥.

فأن اكرَمتَنْا دُنْيا وأخرى فليس البَحْرُ تنُصبُهُ الدِّلاءُ

لقد تحققت الامكنة من خلال (الريف، الملجأ، البحر) في جمالية منسجمة مع خصوصية الشفاعة المحمدية في دلالة شعرية تمخضت عنها تلك الامكنة المجازية اذ لا ملجأ للفرد إلاّ شفاعته، لتتوالد الصور الاستعارية التجسمية من خلال الاستعارة المكنية بقوله (ريفِ رأفتنا) لتلك الرأفة المحمدية التي تشرق على المستغفرين التائبين، والكرم المحمدي بـ(البحر) في تشبيها ضمني فكرمه ازلي خالد لا يضاهيه كرم اخر. وتعطي الاخرة، صورا اخرى للمكان المفترض والمتخيل ما بين ألفة الوجود فيه او النفور من اجوائه، ولعل صور الفردوس وجنان الاخرة كانت من اكثر الاماكن نشدان من قبل الشاعر البرعي بقوله:[١]

يـا شفيع البرايا فـي غد من لظاها

كـن لنفسي معينا إن هـوت في هواها

وارعها فـي جنان دانيـات جنـاها

وصـلاة تحـيي خـاتم الـرسل طه

وتغشـى ريـاضا حلـها وارتضـاها

فالصلاة والشفاعة تعمل على تعجيل الفوز بتلك الجنان والمكوث بين رياضها، ولاسيما انها رغبة ملحة دفعتها اساليب النداء في (يا شفيعي) والامر بـ(كن، وارعها) وسط مدركات حسية للجنة من (جنان، دانيات جناها، رياض حلها).وتبقى صور الجنة بصيغها المعنوية في ألفة منشودة دائما من قبل المؤمن، بقوله:[٢]

افتح لروحي الى الفردوس باب رضا يهدي رياح رياض ظلها ضال

ان اقتران النفس بالذنوب، قد جعلت للمكان صورا اخرى غير محببة، مختلفة بأجوائها عما شهدته فردوس الاخرة، بقوله:[٣]

---

[١] ديوانه: ٢٧٤.

[٢] ديوانه: ١٦٠.

[٣] ديوانه: ١٢٧.

يا منقذ الخلق من نار الجحيم وهم على شفا جرف هار بمنهار

فهو ينادي ربه برغبة جامحة باصلاح عاقبته من المكوث بأمكنة غير مرغوبة بأجوائها واهلها. في تمازج الجحيم مع المكان المعادي بما يثيره من الأحساس بالعداء والضيق لدى البشر. ولعل هذه الصورة قد تكررت كثيرا لدى الشاعر البرعي، بقوله:[١]

يـا شفيع البرايا فـي غد من لظاها

كـن لنفسي معينا إن هـوت في هواها

واكفـها حـر نـار جـرف هار شفاها

فالشفاعة المرجوة من الرسول الكريم بالنداء الملح بـ(يا شفيعي) مع الاسلوب الطلبي بـ(كن، واكفها) كفيلة بحصانة النفس من النار وسقوطها في هاوية الجحيم الذي كني عنها بـ(حر نار، جرف هار).

ويبقى المكان في شعر البرعي متجسدا بتلك الرؤى المكانية المقتبسة جماليتها من النور المحمدي، وشفاعته وحاجة الفرد الى الاستقرار والامان او في ذكر الحجازيات في فن بارز حيث الحلول والانتقال الصوفي ورائحة الحبيب المصطفى وتربه العبق، او باسلوب تقريري من خلال القبر والحوض او باسلوب متوازن من خلال معجزات الرسول محمد **(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم)** في معجزة الاسراء والمعراج.

وبعد ان انهينا رحلتنا مع البرعي ورؤيته المكانية وتجلياته التصويرية خرجنا بنتائج تعد ثمرة واضحة لما قلناه في متون الصفحات.اذ وجدنا ان المكان الحقيقي او الواقعي اشمل واوسع حضورا من المكان المتخيل فضلا عن ذلك فقد كان المكان الحقيقي في بعض الاحيان المدخل او الجسر الممتد للمكان المتخيل ولاسيما المكان الاخروي. اذ نجح في رسم المكان من خلال توظيفه للتقنيات الفنية والاسلوبية الفاعلة في بناء الصورة المكانية ليكون السياق المكاني في قصائده بلغة شعرية رصينة.

---

[١] ديوانه: ٢٧٣.